مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (١٢)، العدد (٣)، ص ص ١٨٥١-١٨٧٦، (رجب ١٤٤٠هـ/ مارس ٢٠١٩)

الارتحال والاكتشاف وعدوى العنف في الرواية الحضارية العربية
(رواية: موسم الهجرة إلى الشَّمال أُنموذجاً)

"جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوربي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل"
(بطل الرواية مصطفى سعيد)

د. يسن إبراهيم بشير علي، و د. عادل عثمان الهادي
أستاذا الأدب والنقد المشاركان، قسم اللغة العربية،
كلّية الآداب، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على الرواية الحضارية العربية ممثلةً في رواية موسم الهجرة إلى الشَّمال، التي شهدت سجالات ارتحالٍ نحو الشَّمال، بكل ما يعنيه هذا الارتحال من مغامرةٍ وكشفٍ، وما يستدعيه ضرورةً من رهانات الظفر والخسارة. فترصد واقع المثقّف العربي في مهجره الغربي أثناء وبعد حقبة الاستعمار، وهو ينطلق في رحلة بحثٍ عن الذات، وعن الآخر المختلف الذي امتلك أسرار القوّة التي مكّنته من السيطرة على شعوب العالم الثالث، وفرْض هيمنته عليها في العصر الحديث. ولعلّ ما ميَّز رواية موسم الهجرة إلى الشَّمال ومنحها حضوراً لافتاً بين هذه الروايات الحضارية، هو تركيزها على ظاهرة العنف الذي شكّل حضوراً طاغياً في بنيتها الفنّية والفكرية، الأمر الذي يُثير أسئلةً جادّةً عن دلالات هذا العنف في سياقه الحضاري الذي ورد فيه. لذلك تأتي هذه الدراسة وهي تُسائل السرد والسياسة والأيدلوجيا لعلّها تظفر بالإجابة.

المقدّمة

تبحث هذه الدراسة في سجالات الارتحال، وما قاد إليه من كشفٍ، وما ارتبط به من عنفٍ رمزي له دلالاته، في واحدةٍ من أشهر الروايات العربية الحضارية، هي رواية (موسم الهجرة إلى الشَّمال) للطيِّب صالح[١]. فقد جرت معظم أحداث هذه الرواية في فضاءٍ خارجيٍّ في مدينة لندن التي تمثِّل رمز الإمبريالية والاستعمار الأبرز في العصر الحديث. كما تمثِّل بيئتها الزمانية ذروة الأزمة في العلاقة بين الشرق والغرب، متمثلةً في الفترة التي شهدت تعرُّض معظم دول العالم الثالث للاستعمار الذي خلّف آثاراً وعقابيل وجدت طريقها إلى الإبداع الأدبي. ولهذا جاءت شخصيات الرواية، وخاصة بطلها مصطفى سعيد تؤكِّد من خلال أفعالها على طبيعتها الصدامية الصارخة.

فالدراسة إذن تسعى إلى معالجة قضية الارتحال، وما أدّى إليه من كشفٍ، وعلاقة ذلك بالعنف (الرمزي) الذي تخلّل أحدث الرواية، ودلالة هذا العنف، وفق منهجٍ يجمع بين إجراءات المنهج الاستقرائي Inductive approach الذي يُعين في حصر الظواهر وفحصها، والمنهج التأويلي Interpretive approach الذي يهدف إلى اكتشاف المعنى الخفي الثاوي وراء ظواهر الكَلِم.

فتقارِب الدراسة تجربة ارتحال الإنسان العربي إلى الغرب وما صاحبها من كشفٍ قاد إلى معرفةٍ أعمق بالذات، وبالآخر المختلف. كما تحاول الدراسة أن تبحث في علاقة الارتحال بالعنف الذي يجلِّل أحداث رواية موسم الهجرة إلى الشَّمال، ساعيةً إلى معرفة الدوافع التي ولّدت هذا العنف الرمزي، خاصّةً حين يُنظر إليه في ضوء

---

(١) الطيِّب صالح (١٩٢٩ –٢٠٠٩)، أديب سوداني، نال مكانة مرموقة في خارطة الإبداع الروائي، ما جعل البعض يُطلق عليه عبقري الرواية العربية، عاش متنقلاً في عمله الإعلامي بين السودان ولندن وقطر. كتب الرواية والقصة القصيرة والمقالة، من أعماله: موسم الهجرة إلى الشمال، عرس الزين، ضو البيت (بندر شاه)، مريود، دومة ود حامد، نخلة على الجدول، الرجل القبرصي.

خطابات التجربة الاستعمارية، وما جلبته هذه التجربة من عنفٍ لإنسان العالم الثالث حين ارتحلت إلى دياره وحلّت بها غازيةً ومستوطِنةً. فتقف الدراسة بالتحليل عند ظاهرة الارتحال الذي ميّز حياة بطل الرواية، وما ارتبط بهذا الارتحال من عنف؛ بغرض استجلاء رمزيته، واستنتاج دلالاته في سياقه الحضاري الذي ورد فيه.

الارتحال والاكتشاف في الرواية الحضارية:

تعالج الرواية الحضارية إشكالية العلاقة بين (الذات) العربي و(الآخر) الغربي من زوايا مختلفة، وتجسّد المفارقة الحضارية بين الشرق والغرب، فتصوِّر أبطالاً عانوا الاغتراب في ارتحالهم نحو الشَّمال بحثاً عن كنوز الغرب المعرفية التي وضَعتْ أسرار القوّة والتفوُّق في يده، وفي خضمِّ هذا البحث وجد هؤلاء الأبطال المرتحلين أنفسهم يصارعون في ميادين أخرى، ميادين الهويَّة، والعدالة بين شعوب الأرض، والرؤية غير المتحيِّزة للتجارب الإنسانية.

في هذا السياق جاءت رواية (موسم الهجرة إلى الشَّمال) للطيّب صالح، بوصفها واحدةً من أشهر الروايات الحضارية العربية، فمنذ صدورها في العام ١٩٦٦م، شدّت إليها الأنظار، وجلبت الأقلام من بيئاتٍ ثقافيةٍ عديدة وبمناهج نقديةٍ مختلفةٍ، ربما يكون ذلك ناتج من حساسية الموضوع الذي تناولته الرواية في فحواها الدلالي، لكن فحواها الفنّي أدّى دوراً حاسماً في هذا الاستقبال الذي حَظيت به، فقد اعتمد كاتبها أسلوباً فنّياً غامضاً بالرغم من الوضوح الظاهري الذي قد يبدو عليه، وتكنيكاً عالياً في استخدام اللغة المجازية سبيلاً لتصعيد أحداث الرواية "فحوادث القتل، والافتتان بالنساء، والجنس دون الحبِّ، يتمّ تصويرها كتصرُّفاتٍ رمزيةٍ تعبّر عن التوترات الثقافية، عن طريق صور العنف والاختراق والقوس والسهم، وصعود

قمّة الجبل، ودقّ أسفين خيمةٍ في التراب"[٢]. هذه الصُّور التي تكثرُ في الرواية تمّ استحضارها للتعبير عن موقف بطل الرواية مصطفى سعيد في رحلته بين حضارتيْن تُضمر كلّ منهما شعوراً بإمكانية إفناء الأُخرى والقضاء عليها. وهو تكنيك أكسب لغة الرواية حيويةً جعلتها قادرةً على إتاحة مجالٍ رحبٍ للنقّاد والقرّاء للمشاركة في العملية الإبداعية، والبحث الجاد الذي من خلاله يمكن التوصُّل إلى قراءات شديدة التنوُّع، وتقديم إجاباتٍ وتفسيراتٍ متعددةٍ عن الأسئلة والإشكاليات التي تُثيرها.

وما يميِّز الرواية الحضارية كما في موسم الهجرة إلى الشّمال، أنّها رواية ارتحال، وأنّ مبدعيها عايشوا _ مثل أبطالها_ تجربة الارتحال من البلدان العربية إلى البلاد الغربية لأسبابٍ مختلفةٍ، منها ما هو معرفي، ومنها ما ارتبط باللجوء أو الاغتراب أو النفي القسري والاختياري. وروايات الارتحال غايتها استخلاص فكرة من طيات المغامرة كما يقول عبد الله علي إبراهيم[٣]. ذلك أنّ الارتحال فعالية إبداعية يُكسب المرء تجارب جديدة تُعيد إليه اتِّزانه، بعيداً عن ضغوط السلطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي قد تُفرض عليه في مكانه الأوّل، فتحول بينه ورؤية الأشياء على حقيقتها؛ ما يساعده على التفكير بها بصورةٍ أكثر موضوعية، والتعبير عنها وعن تجربته الخاصّة دون خوفٍ أو رقابةٍ، ولعلّ هذا هو الذي جعل أعظم الأعمال الإبداعية والتجارب الفنّية الرائدة تخرج من رحم الترحال، ومعاناة المرتحلين. فجاءت في هذا الصدد رواية (قلب الظلام Heart of Darkness) لجوزيف كونراد بعد رحلة نفيٍ إلى داخل أفريقيا. واختار جيمس جويس النفي من بلده إيرلندا فجاءت روايته

(٢) روجر آلن، الرواية العربية: مقدّمة تاريخية نقدية، ترجمة: حصة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٧: ص٢٢٨.

(٣) انظر: السرد _ الاعتراف _ الهويّة، ط١، عبد الله علي إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١١: ص٢٦٠.

(يوليسيس Ulysses) التي أحدثت انفجارات في بنية السرد الروائي. وهكذا اختار مثل هذا النفي (إرنست همنجواي) و(ألدوس هكسلي)، كما اختاره من كُتّاب أمريكا اللاتينية (خورخي لويس بورخيس) و(غارسيا ماركيز) وغيرهم ممن أنتجوا أعمالاً أدبيةً هي من بين أهمّ أعمال هذا العصر. "إنهم بارتحالهم هذا اخترقوا قشرة الحياة إلى عمق عالمٍ غنيٍّ أسماه كارل يونغ بـ (اللاوعي الجمعيCollective Unconsciousness)، وهو عالمٌ غنيٌّ بالمكبوتات الإنسانية"(٤).

وإذا كان الارتحال عادةً ما يكون قرين التأمُّل الذاتي والمغامرة والاكتشاف؛ لأنّه "وسيلة عبورٍ من المجهولية إلى المعلومية، وهو مغامرةٌ شائقةٌ يترقّى بها المرء في مدارج المعرفة فتتلازم عناصر الارتحال بالبحث بالاكتشاف لتصوغ تجربة مغايرة"(٥)، فإنّ أبرز مظاهر هذا الاكتشاف تجلّت في معرفة الآخر، وفي الحكم عليه، كما تجلّت في تعرُّف الذات العربية إلى ذاتها، وفي وعيْها لوجودها من خلال معرفة الآخر، يقول محمّد ديب: "لا يمكننا اكتشاف ذواتنا إلا عبر الترحال(٦). فالاقتراب من الآخر جعل المرتحل العربي يحسُّ بقوّة اختلافه، كما جعله يشعر بالدهشة والقلق اللذيْن آلا إلى ردود أفعالٍ متباينةٍ، تراوحت بين الافتتان بهذه الحضارة الجديدة، إلى الحذر منها، إلى تحدِّيها ومجابهتها، إلى مجادلتها ومحاورتها. وقد خضعت ردود الأفعال هذه للظرف التاريخي الذي مرّ به المرتحل لحظة وصوله للغرب، وهو ظرفٌ مرّ بمرحلتيْن فارقتيْن في حياة الإنسان العربي في العصر الحديث: مرحلة الاستعمار الغربي للبلاد العربية،

(٤) حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦: ص١٤٧.

(٥) عبد الله علي إبراهيم، السرد _ الاعتراف _ الهويّة: ص٢٢١.

(٦) انظر: الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، حليم بركات: ص١٥٣. محمد ديب كاتب جزائري تُوفي في فرنسا عام ٢٠٠٣.

ومرحلة ما بعد الاستعمار، فقد لعبت هاتان المرحلتان دوراً حاسماً في تشكيل رؤى المبدعين المرتحلين ونظرتهم للغرب. فإذا كانت المرحلة الأولى قد ألقت بظلالها على الشخوص الروائية، ووسمتهم بسيْماء الحذر والمجابهة، فإن المرحلة الثانية جاءت شخوصها تخطُّ طريقاً مغايراً، تعبِّر من خلاله عن إمكانية التفاعل والبحث عن فضاء للعيش المشترك. والسرد الذي يمثِّل شكلاً من أشكال التعبير عما تختزنه الذات الساردة، تكفّل بكشف هذه الرُؤى المتباينة.

فقد قدِم مبدعو روايات الارتحال للحواضر الغربية من أقاليم هامشية ومستعمَرة، لكنّهم عمِلوا على التأسيس لخطابٍ جديدٍ يستثمر أدوات الغرب الفكرية والجمالية بشكلٍ يحطّم به ثقافة المركز التي روّج لها طويلاً، تلك التي قامت على تمجيد الذات، واستحضار الآخر ليس بوصفه ذاتاً فاعلةً، وإنما ذاتاً مستسلمةً خانعةً تتضرع أن تخضع للسيطرة الغربية، وفي أبشع صورةٍ سلبيةٍ يمكن أن يعكسها هذا الآخر بالنسبة لهذه الذات، "فإذا كانت الذات _الغربية_ تنويرية فالآخر ظلامي، وإذا كانت عقلانية فالآخر أسطوري خرافي، وإذا كانت متقدِّمة فالآخر متخلِّف، وهكذا دواليك"(٧). وقد كتب بعض هؤلاء المرتحلين بغير لغاتهم الأصلية، بل بلغات الغرب الاستعماري ذاته، لكنّهم كانوا دائماً إلى جانب ثقافة المقاومة والمعارضة في نقدهم لمركزية الغرب وسطوته(٨). مستفيدين في ذلك كما أشرنا، من الأساليب التعبيرية والبحثية التي توافرت لهم، وأصبحت في متناول يدهم بعد أن كانت حكراً على الغرب.

---

(٧) نصر الدين بن غنيسة، عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة، ط١، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ٢٠١٢: ص٣٨.

(٨) انظر: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، ط١، إدريس الخضراوي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢: ص ٧٤.

وإذا كان المؤلّفون كائنين إلى حدٍّ بعيدٍ في تاريخ مجتمعاتهم، يتشكّلون بذلك التاريخ وبتجربتهم الاجتماعية بدرجات متفاوتة كما يقول إدوارد سعيد[٩]، فإنّ عدداً من الكُتّاب العرب أسهم في بلورة هذا الوعي، من بينهم الطيّب صالح في روايته (موسم الهجرة إلى الشّمال) التي جرت أحداثها ضمن سياق المرحلة الاستعمارية، ولذلك اتّسمت تصرُّفات بطلها مصطفى سعيد وسلوكه، بقدرٍ كبيرٍ من التوتُّر والمجابهة التي أفضت إلى ممارساتٍ عنيفةٍ ضد المرأة الغربية، باعتبارها رمزاً للحضارة التي استباحت بلاده، وسلبت استقلالها.

هكذا جاء الخطاب في رواية موسم الهجرة إلى الشّمال بوصفها رواية ارتحال، مسكوناً بهاجس الكشف، فلا يقف عند حدود تجلّي الاغتراب في نفوس المغتربين، ولا عند العلاقات الغرامية والجنسية التي يخوضها الشاب المشرقي في مُغتربه فحسب، كما وقفت غيرها من الروايات التي سبقتها في هذا الميدان، وإنّما ليكشف من خلال هذه العلاقات عن رواسب الفترة الاستعمارية وآثارها في نفوس أبناء الشعوب المستعمَرة.

الارتحال وعدوى العنف:

تكفّلت سرود الارتحال العربية برسم وتصوير أبعاد رحلة الجنوب نحو الشّمال بكل تفاصيلها الدقيقة، فهي رحلةٌ كانت على الدوام تنطلق صوب اتجاهٍ واحدٍ، حتّى ليبدو ذلك ظاهراً في مرايا عناوين بعضها قبل متونها، في هذا الصدد جاءت رواية (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم، (سراب الشرق وشرفات بحر الشمال) لواسيني الأعرج، (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح، (ديك الشمال) لمحمد الهرادي، (أشجان مدريد) لطه وادي، وغيرها. لكنّ هذه الرحلة المتجه نحو الشمال ما كان لها

(٩) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ط٢، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨: ص٦٦.

أن تتم لولا رحلةٌ أُخرى سبقتها كانت وجهتها من الشمال نحو الجنوب، تلك التي بلغت ذروتها في العصر الحديث الذي سادت فيه الحضارة الغربية على حساب حضارات شعوبٍ أخرى تعرّضت لكلِّ مظاهر الإزاحة والنفي، بسبب ارتحال الإنسان الأبيض، وتيممه شطر أوطانٍ بديلةٍ اغتصبها من أصحابها الأصلانيين، الذين أصبحوا بين ليلةٍ وضحاها في ظلّ هذا الواقع الجديد الذي فُرض عليهم، بلا أوطانٍ يمتلكونها، أو تاريخٍ يعتدُّون به، أو حاضرٍ يعيشونه، أو مستقبلٍ يأملون فيه. حين لجأ الاستعمار بشكله العسكري القديم الذي اعتمد مبدأ الاحتلال، أو بأشكاله الاقتصادية والإعلامية والسياسية إلى ممارسة القوّة في إخضاع تلك المجتمعات وترويضها، سواءً بالعنف من خلال السيطرة المباشرة عليها، أو بالإغواء الاستهلاكي والثقافي[١٠]. وقد احتفظت هذه الشعوب في شعورها ولا شعورها الجمعي، بمشاعر سلبية لا تَمَّحِي تجاه الغرب الاستعماري، كما احتفظت ذاكرتها الاجتماعية، وتراثها النثري والشعري، بمظاهر احتجاجية ما تزال ترسم مواقف مضادة للغرب. يقول أحد حكماء روديسيا الجنوبية_ زمبابوي حاليا" عندما أقبل علينا الرجل الأبيض كان يمتلك الإنجيل وكنّا نملك الأرض، ثمّ دارت الأيّام فإذا به يمتلك الأرض ونحن نمتلك الإنجيل"[١١] وقد عبّر عن هذا المعنى بطريقة إبداعية الشاعر النيجيري دنيس أوسادباي موجّهاً خطابه للمستعمِر، قائلاً:

جلبت لي صليبك ثمّ قذفت بي لقد أصبح قلبي مليئاً بالمرارة
أخبرتني أن أُغمض عينيْ وأُصلّي لكنّك كنت تسرق أرضي[١٢]

(١٠) انظر: الكتابة والمنفى، ط١، مجموعة مؤلّفين، مقال بعنوان (التجربة الاستعمارية وكتابة المنفى)، لعبد الله علي إبراهيم، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١١: ص٦١.

(١١) محمود موسى تاور، أدب الزنوجة، دار عزّة للنشر والتوزيع، الخرطوم، ٢٠٠٤: ص ٨.

(١٢) نفسه: ص٩.

هكذا خرجت آداب وغنائيات الشعوب المستعمَرة، مفعمة بروح الألم والحسرة على الخدعة الكبيرة التي اكتشفوها تحت وهْم الرسالة الإنسانية والتحضيرية المزعومة.

لكنّ الاستعمار الغربي الحديث لم يعتمد الجانب العسكري والسياسي وسيلةً وحيدةً لفرض سطوته على الآخرين في ارتحاله إليهم، فقد تخلّل هذه الرحلة ومهّد لها رحلات عديدة من نوعٍ آخر، قامت بدراساتٍ وفّرت حصيلة من المعارف لم تكن في عمومها مؤسسة على ضوابط العلم، بل نهضت على رؤى استشراقية تدعم الهوّة بين الجنوب والشمال، ساهم فيها رحّالة وعلماء اجتماع وعلماء أعراق ومستكشفون ومستشرقون. "ورغم أنّ هذه الدراسات حاولت بكلِّ السبل أن تدلّل على أنّها موضوعيةٌ ودقيقةٌ، فإنّ ذلك الادِّعاء ليس سوى قناعٍ لإخفاء انحيازها المباشر لمصالح المركزية الاستعمارية وخدمتها لها"(١٣). فضلاً عن رحلات الروائيين الواقعية والتخيُّلية كرحلة جوزيف كونراد إلى أفريقيا في روايته (قلب الظلام)، وهي رحلات كثيراً ما تبرز في ثناياها صُورة إنسان العالم الثالث وهو يتلقّى جرعاتٍ تحضيريةٍ وتثقيفيةٍ من أناسٍ متنوِّرين قدِموا من أوربا، و"يعلو فيها صوت متخلّل السيطرة والسلطة دون مقاطعة. هذه النغمة الملحّة، بالنسبة للأصلاني الذي يبدأ يراها ويسمعها، تُطلِق نغمة الأزمة، نغمة الطرد، الطرد من القلب، الطرد من البيت"(١٤).

وفي رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) إشارات رمزيّة عن حنين الحضارة الغربية لامتلاك الجنوب ومقتنياته، يقول مصطفى سعيد عن إحدى فتياته "كانت عكسي تحنُّ إلى مناخاتٍ استوائيةٍ، وشموسٍ قاسيةٍ، وآفاقٍ أرجوانية. كنت في عينها رمزاً لكلّ هذا الحنين. وأنا جنوب يحنُّ إلى الشِّمال والصقيع"(١٥). كما في ثنايا الرواية إشارات معبِّرة

(١٣) إدريس الخضراوي، الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار: ص٧٣.

(١٤) انظر: إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية: ص ١٦٧-١٦٨.

(١٥) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، ٢٠٠٤: ص٤٠.

عن هذه الرحلة بشقيْها الثقافي والعسكري، ونوع الحضارة التي حملتها معها بما فيها من صُور الاستعلاء، وألوان العنف الذي جلبته لإنسان العالم الثالث حين حلّت بدياره، جاءت هذه الإشارات على لسان بطل الرواية مصطفى سعيد في ردهات المحكمة التي عُقدت لإدانته، يقول: "إنني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة، وقعقعة سنابك خيل اللنْبي وهي تطأ أرض القدس. البواخر مخرت عرض النيل أوّل مرّة تحمل المدافع لا الخبز، سكك الحديد أُنشئت أصلاً لنقل الجنود. وقد أنشأوا المدارس ليعلّمونا كيف نقول نعم، بلغتهم. إنّهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوربي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في السوم، وفي فردان، جرثومة مرضٍ فتّاكٍ أصابهم منذ أكثر من ألف عام. نعم يا سادتي، إنني جئتكم غازياً في عقر داركم. قطرةٌ من السمِّ الذي حقنتم به شرايين التاريخ"[١٦]. هكذا يتحدّث بطل الرواية وكأنّه ينطق بلسان الكل، في نصٍّ يضعنا مباشرةً أمام ردّة الفعل التي استحوذت على أبناء الشعوب المستعمَرة الذين أخذوا ينطقون بعد صمتٍ طويلٍ، مبرهنين على مقدرتهم في تمثيل أنفسهم، وعلى إمكانية أن يقول أحدهم شيئاً حقيقياً. لم يكن يهمُّ مصطفى سعيد أمر المحكمة ولا نوع الحكم الذي ينتظر صدوره في حقّه "جلستُ _ كما يقول_ أسابيع أستمع إلى المحامين يتحدّثون عنّي كأنّهم يتحدّثون عن شخصٍ لا يهمّني أمره"[١٧]، لكن الأهم من ذلك عنده هو التعبير عمّا يحسّ به، في مواجهةٍ ضدِّيةٍ عنيدةٍ تشهد على الغبن الذي يحمله هؤلاء على أولئك الذين جلبوا إليهم الشقاء في عُقر دارهم، تحت ذريعة الرسالة التحضيرية التي تحدّثوا عن نقلها لشعوب الهامش والأطراف، فكان من وراء هذه الرسالة الاستعمار والاقتلاع من الأصول.

---

(١٦) نفسه: ص ١٠٣_ ١٠٤.

(١٧) نفسه: ص٤١ .

مثلُ هذا الخطاب يُفصِحُ في الواقع عن وعيِ هؤلاء الوافدين على الحواضر الغربية إلى مخططات المستعمِر ومساعيه في إحداث شروخٍ عميقةٍ، وخلق إحساسٍ بالانقسام والاغتراب في هويّة الشعوب المستعمَرة، وكانوا يدركون أنّ هذا الأمر لن يتمّ له إلا عن طريق الإحلال والإبدال، إحلال لغةٍ مكان لغة، وإبدال ثقافةٍ بأخرى؛ وذلك بإعلائه من شأن اللغات الغربية والثقافة التي تحملها، والحطّ من شأن لغات الشعوب المحلّية وثقافاتها، ما يعني دفع أبناء الأطراف لتبنِّي لغة المستعمِر وثقافته. يقول أحد الكتّاب الأفارقة "في القارة السوداء، شرع المرء يعرف أنّ قوتهم الحقيقية _أي المستعمرين_ لا تكمن إطلاقاً في مدافع الصباح الأوّل، ولكن في ما تلا المدافع. هكذا خلف المدافع كانت المدرسة الجديدة. كان للمدرسة الجديدة طبيعة المدفع والمغناطيس معاً. من المدفع أخذت كفاءة السلاح المحارب، لكنّها خيراً من المدفع جعلت الغلبة دائمة"[١٨]. فالصراع كان صراعاً حضارياً بامتياز؛ لأنّ المستعمرين الذين أنشأوا المدارس لم ينشئوها بغرض التحضير والاستنارة كما يدّعون، وإنّما "ليعلّمونا كيف نقول نعم، بلغتهم"؛ ذلك أنّ اللغة شأنها شأن الثقافة هي مصرف الذاكرة الجمعية لتجربة الناس في التاريخ[١٩]. لذلك نرى مصطفى سعيد الذي كان يُدرك عوامل الصراع، بدلاً من قول نعم، نراه يقول لا، في كل مرّةٍ يُتاح له فيها ذلك، مرةً بأقواله، وأُخرى بلسان حاله وأفعاله. وهي أفعالٌ لا تخلو من عنفٍ طالما جاءت في سياق تفكيك الاستعمار، واستجابةً مضادةً للعنف الذي صدّرته أُوربا إلى العالم.

لقد ذهب سعيد الذي كان مسكوناً بهاجس الارتحال منذ الصغر، في رحلته المعاكسة إلى لندن، عاصمة الدولة التي استعمرت بلده، وفيها أكبَّ على العلم

(١٨) شيخ حميدو كاني، المغامرة الملتبسة، ترجمة بشير دياغني. نقلاً عن: تصفية استعمار العقل، نغوجي واثنغو، ترجمة: سعدي يوسف، دار التكوين، دمشق، ٢٠١١: ص٣١.

(١٩) انظر: تصفية استعمار العقل، نغوجي واثنغو: ص٤٠.

والمعرفة، فاستوعب عقله حضارة الغرب، لكنّه ظلَّ محتفظاً بقلبه الذي يحمل تركةً مثقلةً بالمعاناة، وغُبناً لا ينمحي على المستعمِر، يقول: " كنت أعيش مع نظريات كينز وتوني بالنهار، وبالليل أواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب"[٢٠]. فوظَّف هذه المعرفة، كما وظَّف الوهْم المضروب حول إنسان العالم الثالث (غير المتحضِّر) وسيلةً في مقاومة الاستعمار في عُقر داره "إنني جئتكم غازياً في عقر داركم". واتخذت المقاومة عنده شكليْن، أحدهما فكري والآخر جسدي.

في شكل المقاومة الأوّل الفكري، ألّف سعيدٌ كُتباً عديدةً، من شاكلة اقتصاد الاستعمار، اغتصاب أفريقيا، والاستعمار والاحتكار. كما أسهم في تكوين الجمعيات المناهضة للاستعمار، فكان رئيساً لجمعية الكفاح لتحرير أفريقيا[٢١]. هادفاً من ذلك إلى فضح السياسة الاستعمارية وجشعها في استغلال الثروات الاقتصادية لبلدان الهامش.

وفي شكل المقاومة الثاني الجسدي، دخل سعيد في خضمِّ علاقاتٍ نسائيةٍ جنسيةٍ كانت صلته بالمرأة الغربية فيها معركة قسوةٍ، أدمن فيها تعذيبها، بتحطيم قلبها ودفعها للانتحار، أو بقتلها. ولا نعرف في النهاية هل هو فريسةٌ أو مُفترِسٌ أو كلاهما معاً على حدِّ قول أحد نقّاد هذه الرواية[٢٢]. لكن من المؤكّد أنّه لم يفكّر مدّة وجوده في لندن التي طالت مدّتها، في بناء علاقةٍ إنسانيةٍ سويّةٍ مع فتياتٍ طالما تعلقنَ به، ولم يكن قلبه يخفق لجمال الطبيعة حوله، ولا لأهازيج الحبِّ الحقيقي التي يردِّدها المغنّون، ولم تشدّه لندن بمسارحها التي تمتلئ بالفنّ والجمال. كان الذي يعنيه من كل ذلك، اصطياد النساء، وما يملأ فراشه كل ليلة "ثلاثون عاماً. كان شجر الصفصاف يبيضّ ويخضرّ ويصفرّ في الحدائق، وطير الوقواق يغنّي للربيع كل عام. ثلاثون عاماً وقاعة ألبرت

(٢٠) الطيب صالح، الأعمال الكاملة: ص٤٣.

(٢١) نفسه: ص١٢٨، ١٤٥.

(٢٢) انظر: الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، حليم بركات: ص ١٥٠.

تغصُّ كل ليلة بعشّاق بيتهوفن وباخ ... ومنطقة البحيرات تزدهي عاماً بعد عام. الجزيرة مثل لحنٍ عذبٍ، سعيد حزين، في تحوُّلٍ سرابيٍّ مع تحوُّل الفصول. ثلاثون عاماً وأنا جزء من كلٍّ هذا، أعيش فيه، ولا أحسُّ جماله الحقيقي، ولا يعنيني منه إلا ما يملأ فراشي كل ليلة"[٢٣]. هكذا كان يتحدّث مصطفى سعيد.

لا بدّ أنّ الطيّب صالح الفنّان حين بنى هذه الشخصية المأزقية بتصرّفاتها الرمزية، بناها وهو يقلّب من خلالها احتمالات ردود أفعال أبناء الشعوب المستعمَرة المأزومين؛ ذلك أنّ "عنف هويّةٍ عدوانيةٍ يمكن مواجهته بالقوّة المحرِّكة لهويّات منافسة"[٢٤]. فسعيد المنبتّ الأصل قياساً إلى الراوي والذي دفعته بلده للاغتراب، لم يسعه وهو في منفاه الاختياري تجاوز أزمته أو التخلّص من سلوك ردّة الفعل ومناجزة المستعمرين بالرغم من احتضانهم له، وإتاحتهم له فرصةً للدراسة والعمل لم يتوافر عليها في بلده الأوّل. لكنه بدلاً من ذلك نراه ينخرط في سلوك عنيف، وهو عنفٌ رمزي، ولسان حاله يقول إنّ هذا العنف الذي يمارسه أبناء الشعوب المستعمَرة اليوم في عقر داركم هو عنف مبرَّر طالما كان ضرورياً لتحرير الجنس البشري من أوهام التفوُّق والقدرة على الطمس الثقافي، وكان ضرورياً لإثبات الذات والهويّة، وإحلالها محل الذات المستعارة.

فبقدر ما صرع عنف الحضارة الغربية أبرياء لم يكن ذنبهم سوى أنّهم وُجدوا في مكانٍ قصيٍّ وهامشيٍّ بالنسبة للعالم الحواضري الذي ارتحل إليهم، واستغلّهم أبشع استغلال في حملاته الاستعمارية، ها هو مصطفى سعيد يردّ على هذا السلوك حين يوجّه عنفه إلى فتياتٍ بريئاتٍ وضعهن القدر في طريقه، وهو يُدرك أنّ الشرّ لا يكمن

(٢٣) الطيب صالح، الأعمال الكاملة: ص٤٥.

(٢٤) أمارتيا صن، الهويّة والعنف: وهْم المصير الحتْمي، ترجمة: سحر توفيق، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٨: ص ٧.

فيه ولا فيهنّ، وإنّما يكمن في مكانٍ آخر، أو بمعنى أدقّ إنّه لم يقتل أولئك النسوة، إنّما قتلهنّ العنف الأوربي الذي استشرى في جسد الإنسانية كجرثوم مرضٍ فتّاك منذ آلاف السنين، ولئن كان له هو دورٌ في ذلك، فلعلّه يكون فقط في "تهييجه لكوامن الداء حتى استفحل وقتل"(٢٥). لهذا نراه حين يقترب من الإيقاع بامرأة بسيطةٍ متزوجة هي "إيزابيلا سيمور" التي يدمّر حياتها فيما بعد، نجده يقول هاجساً لها ولنفسه وكأنّه يعتذر عن هذه الطريقة التي يعبِّر بها عن مكنون نفسه "أنت يا سيدتي ...قد أصابك داءٌ فتّاكٌ لا تدرين من أين أتى، سيودي بك إن عاجلاً وإن آجلاً... لا أنوي بك شرّاً إلّا بقدر ما يكون البحر شريراً حين تتحطّم السفنُ على صخوره، وبقدر ما تكون الصاعقة شريرةً حين تشقُّ الشجرة نصفيْن"(٢٦). فالعنف الذي يمارسه مصطفى سعيد هو في الواقع عنفٌ بربريٌّ بالمنطق الإنساني والأخلاقي، لا يُدانيه في بربريته هذه سوى عنف المستعمِر الذي نقله إلى جهات العالم المختلفة، فاستعدى به أبناء تلك الجهات، وهو عنفٌ ما يزال قابلاً للاستمرار والتطاير بعيداً طالما لم يواجَه بوعيٍ حقيقيٍّ يرفضه من حيث المبدأ، وتحت أيٍّ مسمىً كان، فلا يبرره إن جاء مكشوفاً تحت مسمى الاستعمار، أم جاء مقنّعاً بقناع الرسالة التحضيرية التي كان يتدثّر بها. ما يعني عند بطل الرواية إن كانت رحلته من الجنوب نحو الشمال غزواً؛ فإنّ رحلة الشمال التي سبقتها نحو الجنوب كانت أيضاً غزواً، لكنها أبعد من ذلك، كانت مسئولةً عن نقل عدوى العنف الذي استشرى في جسد الكون.

انطلاقاً مما تقدّم نخلص إلى أن أدب المرتحلين نحو الشمال بثيّماته التي يحملها، ورمزيته التي يستبطنها، قد أصبح تجربةً مجازيةً تُحيل على دلالاتٍ عميقةٍ تتجاوز

(٢٥) الطيب صالح، الأعمال الكاملة: ص ٤٤.

(٢٦) نفسه: ص ٤٩، ٥١.

مفاهيم الهجرة والتشرّد والاقتلاع، ليدخل في سياق خطابٍ جديدٍ يهدف في محصّلته النهائية إلى تفكيك خطاب الاستعمار، وذلك بإعلاء قِيَم الاختلاف، وتعميق الوعي بقيم الحرية والعدالة واحترام الشعوب ومنجزاتها الثقافية والإبداعية، غضَّ النظر عن مكانها الجغرافي، حتى يتسنّى للعالم إمكانية الاطلاع على تجارب جديدةٍ ومغايرةٍ، تُثري عملية التفاعل الثقافي في القرية الكونية التي أخذت في التشكُّل حديثاً، هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أُخرى فإن هذا العنف الذي مارسه بطل الرواية، وهو عنفٌ رمزي بطبيعة الحال، يمكن النظر إليه بوصفه ردّ فعل أو عدوى لعنف المستعمِرين الذين نقلوه إلى جهات العالم المختلفة في ارتحالهم إلى تلك الجهات.

رمزية العنف وإنتاج الدلالة:

عرفنا مما تقدَّم أنّ خطابات الارتحال المتعاكسة جنوباً وشمالاً جاءت في سياق خطابات التجربة الاستعمارية الحديثة، وما خلّفته من آثارٍ وجدت طريقها إلى الإبداع الأدبي والنقاش الفكري. هذه الخطابات كما لاحظنا لا تخلو من صوت السيطرة والاستعلاء في جهة الشَّمال، ونغمة الحزن والأسى في الجهة المقابلة، جهة الجنوب. بيد أنّ نغمة الحزن والأسى هذه نراها تتراجع إن لم تكن توارت تماماً في رواية (موسم الهجرة إلى الشَّمال)، لتحلَّ مكانها ظاهرة العنف النفسي والجسدي الذي يمارسه بطل الرواية في بيئته الجديدة التي ارتحل إليها، مدينة لندن، رمز الامبريالية والاستعمار الأبرز في العصر الحديث. ومن هنا يأتي السؤال عن رمزيّة هذا العنف ودلالته في سياقه الحضاري الذي ورد فيه، من شخصٍ ارتحل إلى الشَّمال، ووجد فيه حظّاً من العلم والمعرفة في جامعاته المتقدّمة.

لقد ذهب بطل الرواية الشاب مصطفى سعيد إلى لندن يقوده التشويق الثقافي والعلمي والاجتماعي بعد أن عايش جزءاً من ذلك التشويق في بلاده، من خلال

ارتباطه بالمدرسة الاستعمارية التي قدّمت له الغرب نموذجاً عصرياً أعلى ومتطوِّراً. في لندن أكبّ سعيد على الدراسة والتحصيل العلمي حتى نال الدكتوراه، لكنّه في الوقت ذاته أخذ يمارس ضروباً من العنف الجسدي (الجنسي) والنفسي قاد إلى تدمير عدد من الفتيات اللائي كنّ ينتحرنَ حين يكتشفنَ خداعه لهنّ بعد تعلقهنّ به، وقد بلغ هذا العنف الموجّه ضد المرأة الغربية ذروته حين أقدم على قتل زوجته جين مورس في اللحظة الفريدة التي تستسلم له فيها بعد ممانعةٍ طويلةٍ، وتسلّمه جسدها.

فما الذي أراده الطيّب صالح من تفعيل أحداث الرواية عن طريق هذه الظاهرة، ظاهرة العنف، وما الحمولات الرمزيّة والدلالية التي تُحيل عليها هذه الظاهرة حين نقرؤها في ضوء مقولات الخطاب الاستعماري الذي لا يقرُّ بمبدأ الشراكة في القيم والمعرفة والتجارب. وهي مقولات سعت نظرية ما بعد الاستعمار والخطاب الذي أنتجته إلى تحليلها ودراستها دراسةً واعيةً تهدف _ضمن ما تهدف إليه_ إلى تحقيق مبدأ التساوي والاعتراف المتبادل.

لعلّ الدلالة الأبرز في ذلك هي فضح الدعاوى التي ظلّ المستعمِر يردِّدها طوال فترة إخضاعه لشعوب العالم الثالث، وهي دعاوى قامت تحت ذريعة أنّ الغرب ومن منطلق المسئولية الحضارية التي تقع على عاتقه تجاه شعوب الهامش، يتوجّب عليه تحريرها من براثن التخلّف، ودمجها في مسار التطوُّر الغربي، هذه المهمة الحضارية التي وصفها كبلنج بعبء الرجل الأبيض (The white man's burden) [٢٧] هي التي سوّغت للغرب إيفاد البحّاثة والمستكشفين، وتجييش الجيوش وإرسالها لإيصال النور والحضارة _على حدِّ زعمه_ إلى جهات العالم المظلمة. وهي مهمّة شكّك فيها كتّاب غربيون قبل أبناء الشعوب المستعمَرة أنفسهم. فمن بين الكتّاب الغربيين الذين شكّكوا في هذه المهمّة

(٢٧) انظر: في الأدب السوداني الحديث، ط١، عبد المنعم عجب الفيا، دار نينوى، دمشق، سوريا، ٢٠١١: ص ٢١١.

جوزيف كونراد في روايته "قلب الظلام" التي أتينا على ذكرها سابقاً. فهذه الرواية بالرغم من الانتقاد العنيف الذي وجهه لها الروائي النيجيري المشهور أشنوا أشيبي بحجة أنّها قلّلت من إنسانية dehumanized الإنسان الأفريقي، فصوّرته كأنّه أقل درجة من حيث القيمة الإنسانية، وكأنّه بلا ثقافة وبلا ماضٍ وبلا تاريخ، إلّا أنّ نقّاداً غربيين ردّوا على أشيبي بأنّه أسقط السياق التاريخي للرواية، كما أسقط سيكولوجية القارئ الغربي المفترض الذي توجّه إليه كونراد في ذلك الوقت، ذلك أنّ الرواية ركّزت أساساً على تصوير الخراب النفسي والظلام الداخلي للإنسان الأوربي الذي من نتيجته أن قاد كيرتز _ بطل الرواية _ إلى الجنون[٢٨]. كما أنكر هذه المهمّة إنسان العالم المستعمَر الذي هاله ما رأى وعايش من مفارقةٍ بين ما لدى الغرب مما كان يمنّي به شعوب الأطراف، وبين ما صدّره إليهم على وجه الحقيقة في ارتحاله إلى ديارهم. يقول الشاعر الأفريقي س مقايا (١٨٧٥ - ١٩٤٥) بمناسبة تكريم أمير ويلز في زيارته لجنوب أفريقيا عام ١٩٢٥:

أنت يا بريطانيا الراغدة
أيُّهما يجب أن نحب؟
أرسلت لنا الحقيقة، وأنكرت علينا الحقيقة
أرسلت لنا الحياة، وسلبت منا الحياة
أرسلت لنا النور، وها نحن نجلس في الظلام
نرتجف في عتمةٍ وجهلٍ، تحت شمس الظهيرة الساطعة[٢٩]

(٢٨) انظر: مقدمة رواية قلب الظلام، ط لندن، عام ١٩٩٥. نقلاً عن: في الأدب السوداني الحديث، عبد المنعم عجب الفيا: ص٢١٤.

(٢٩) انظر: الأدب الأفريقي، علي شلش، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، مارس ١٩٩٣: ص٤١.

في هذا السياق يمكن فهم سيكولوجية مصطفى سعيد وبالتالي فهم رمزية أفعاله العنيفة ودلالتها، فسعيد الذي نشأ منذ صغره مرتبطاً بالمدارس والجامعات الغربية حتّى ليصدق عليه أنّه مخلوق الغرب وليس مخلوقنا على حدّ قول الشاعر محمد المكّي إبراهيم[٣٠]، يثبت بلا أدنى مجالٍ للشكّ فشل الغرب في تطويع أبناء المستعمرات، وتشكيلهم على النحو الذي يريد. وبالتالي يثبت فشل المهمّة الحضارية التي انتدب الغرب نفسه للقيام بها؛ ذلك لأن المهمّة نفسها ربما لم تكن صادقةً في دعواها، وبالتالي لم تكن مقنعةً على أيّة حالٍ لأُولئك الذين يُفترض أنهم معنيّون بها. فهذا _على سبيل المثال_ بروفيسور ماكسويل فستركين أستاذ مصطفى سعيد في الجامعة، كان يقول له في تبرُّمٍ واضحٍ: "أنت يا مستر سعيد خير مثالٍ على أنّ مهمّتنا الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوى، فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنّك تخرج من الغابة لأوّل مرّة"[٣١]. هذا الوصف لبطل الرواية رغم إمكانية دحضه، باعتبار أنّ سعيد كان يقوم بما يقوم به من أفعال ليست عن جهلٍ وتخلُّفٍ، وإنّما عن إدراكٍ وقصدٍ بوصفه ممثّلاً ومنتقماً لشعوب طالما عانت الاستعمار ومراراته، أقول بالرغم من إمكانية دحض هذا الوصف، إلا أنّه يعبِّر في صميمه عن أزمةٍ كبيرةٍ بين المستعمِر والمستعمَر، ويُفصح عن نظرة كل طرفٍ لما كان يقوم به هو أو المجتمع الذي يمثّله من تصرُّفات وأفعال.

فالبروفيسور ماكسويل الذي يعدُّ أحد الرموز الثقافية والأكاديمية في المؤسسات العلمية الغربية، كان يرى الاستعمار مهمّةً حضاريةً وإنسانيةً، وهو ما يُحيلُ على رؤية

(٣٠) انظر: هذا هو المكان في تذكُّر الطيّب صالح: مقالات في الأدب والثقافة السودانية، ط١، مجموعة مؤلّفين، مقال بعنوان: " فكرة الوطن في أدب الطيّب صالح،" لمحمد المكي إبراهيم، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، أم درمان، السودان، ٢٠١٠: ص ٤.

(٣١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة: ص١٠٢.

الطائفة المثقّفة التي لا تتخلّف كثيراً عن رؤية السياسيين أو الموظّفين الغربيين في هذه المستعمرات، الذين كانوا يروْن أنفسهم في مهمّةٍ مقدّسةٍ تستوجب الحزم والصرامة. ومن هذا المنطلق ندرك أسباب الفظاظة التي كان يتعامل بها هؤلاء مع الشعوب المحلّية. يصفهم أحد الذين زاملوا مصطفى سعيد في المدرسة بقوله: "كان مفتّش المركز الإنجليزي إلهاً يتصرّف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلّها، يسكن في قصرٍ طويلٍ عريضٍ مملوء بالخدم ومُحاطٌ بالجند. وكانوا يتصرّفون كالآلهة"(٣٢).

ويبدو أنّ من أكبر المآخذ التي تدحض هذه الدعاوى الإنسانية الغربية، مما كانت تؤرِّق سعيداً هو ذلك العنف الذي شهده في الغرب (المتحضّر) نفسه حين وصل إلى لندن في العام ١٩١٦، إبان الحرب العالمية الأولى التي عايش جزءاً من مآسيها المروِّعة، فالتصقت هذه المآسي في ذاكرته وصارت جزءاً من هواجسه التي ظل يهجس بها في حالة وعيه أو لا وعيه، فهو لا يفتأُ يذكر العنف الأوربي في السوم وفردان، "إنّهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوربي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في السوم، وفي فردان"(٣٣). وحين يستبدّ به السُكْر في مجلس شرابٍ في قرية ود حامد لا تفلت من لا وعيه، غير إحدى أكثر قصائد الحرب العالمية الأولى رمزيةً في تصوير آلام الحرب ومآسيها، وهي القصيدة التي كشفت سرَّه للراوي، ومن حينها أخذ يحاصره إلى أن باح له بقصتّه التي شكَّلت متن رواية موسم الهجرة إلى الشّمال. وهي قصيدةٌ تصوِّر أهوال الحرب، لشاعرٍ عرف مراراتها، جاء فيها:

هؤلاء نساء فلاندرز، ينتظرن الضائعين
ينتظرن الضائعين الذين لن يغادروا الميناء

---

(٣٢) نفسه: ص ١٠٤.

(٣٣) الطيب صالح، الأعمال الكاملة: ص ١٠٤. السوم وفردان من أكثر المعارك كُلفةً في جبهة الحرب في فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى.

ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يجيء بهم القطار
إلى أحضان هؤلاء النسوة، ذوات الوجوه الميِّتة
ينتظرن الضائعين الذين يرقدون موتى في الخندق والحاجز والطين في ظلام الليل
هذه محطة تشارنغ كروس. الساعة جاوزت الواحدة
ثمّة ضوءٌ ضئيل، ثمّة ألمٌ عظيم(٣٤)

ولذلك حين يقرّر مصطفى سعيد مناجزة المستعمِر الغربي في عُقر داره، فإنّ فعله العنيف هذا يكتسب دلالته في سياقه الحضاري حين يتّضح له من خلال التجربة والمعايشة زيْف دعاوى الغرب التي ظلّ يسوِّغ لها بدمج المجتمعات المستعمَرة في مسار التطوُّر الحضاري، في الوقت الذي كان فيه الغرب نفسه غير مؤهّل للعب هذا الدور الإنساني النبيل، طالما ظلَّ يمارس العنف ضد نفسه، ويقوم بتصديره إلى جهات العالم عبر التاريخ، وفي الوقت الحاضر.

ومن الحمولات الدلالية لهذا العنف في الرواية هو إبراز فشل الطريقة التي لجأ إليها بطل الرواية مصطفى سعيد للردِّ على عنف الاستعمار الأوربي، حين أطلق العنان لعنفه الطقوسي تجاه النساء الأوربيات، فقاد ذلك بعضهن إلى الانتحار _آن همند، شيلا جرينود، وإيزابيلا سيمور_، ثم قام هو بقتل زوجته جين مورس. هؤلاء النسوة يشكِّل حضورهن على هذا النحو في الرواية نقطةً مهمّةً لكشف رؤية الكاتب حول العنف الذي لا يتسنّى تجنيب الأبرياء من ويلاته أينما وُجدوا، حين يكون هو الطريقة المفضّلة للمتصارعين. فمصطفى سعيد الذي كان يمارس هذا العنف كان يدرك أنّ هذا السلوك ليس هو الطريقة المُثلى لمعالجة الأخطاء، لكنه فيما يبدو كان يرى نفسه

(٣٤) نفسه: ص ٢٣-٢٤. القصيدة للشاعر الإنجليزي فورد مادوكس (١٨٧٣-١٩٣٩). عنوانها Antewerp، نسبة إلى مدينة بلجيكية سقطت في يد القوات الألمانية في بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، بعد دفاعٍ مستميتٍ عنها من قِبَل القوات البلجيكية والبريطانية التي فقدت فيها الكثير من أفرادها..

في معركةٍ لإصلاح المعادلة المختلّة بين الشَّمال والجنوب، وفي ميادين المعارك يمكن أن تحدث مثل هذه الفظائع. ففي معرض تعليقه على حديثٍ لإحدى ضحاياه _إيزابيلا سيمور_ التي ترى أنّ قهر الألم في الحياة يتطلّب التفاؤل والشجاعة، نجده يقول: "صدقتي يا سيدتي، الشجاعة والتفاؤل. ولكن إلى أن يرث المستضعفون الأرض، وتسرّح الجيوش، ويرعى الحمل آمناً بجوار الذئب، ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر، إلى أن يأتي زمان السعادة والحبِّ هذا، سأظلُّ أنا أعبِّر عن نفسي بهذه الطريقة الملتوية"(٣٥).

ما يعني أنّ سعيداً لم يكن راغباً في هذه الطريقة التي يصفها بالملتوية، بل لم يكن راضياً عن تجربة ارتحاله للغرب، وما تخلّلها من عنفٍ خاضه لا كما يرغب ويشتهي، وإنما كقَدَرٍ مرسومٍ قاده للسير في طريقٍ أخذه إلى المأساة، "قادني النداء الغريب إلى ساحل دوفر، وإلى لندن، وإلى المأساة. لقد سلكت ذلك الطريق بعد ذلك عائداً، وكنت أُسائل نفسي طِوال الرحلة، هل كان من الممكن تلافي شيءٍ مما وقع"(٣٦). ذلك لأنّ هذه الطريقة الملتوية بدلاً من أن تحقّق لسعيد ما كان يصبو إليه من سعادة تكون في حرية وأمان المقهورين، وفي بسط العدالة بين شعوب الأرض _شأنه في ذلك شأن جميع أبناء الشعوب المستعمَرة_ ها هي تقوده إلى تدمير نساء بريئات، بل تقوده في نهاية المطاف إلى السجن الذي يقبع فيه سبع سنوات، وحين يخرج منه، وتضيق به بلاد الدنيا شرقاً وغرباً، يقرر العودة إلى وطنه، باحثاً عن مكانٍ يطلب فيه راحة البال، ولم يكن ذلك المكان غير قريةٍ صغيرةٍ هي قرية ود حامد التي يبدأ فيها حياةً منتجةً، حيث الزواج والإنجاب، وحرَث الأرض والإنتاج، الأمر الذي جعل

(٣٥) نفسه: ص ٥١.

(٣٦) نفسه: ص ٣٧.

لوجوده هنا قيمةً ومغزى أسكتا _إلى حين_ ذلك النداء البعيد الذي بدأ صداه يتردد مرّةً أُخرى في أذنه عندما اكتشف الراوي أمره. وحين يهمّ بالارتحال تلبيةً لذلك النداء، نراه يوصي الراوي بتجنيب ابنيْه مشقة السفر والرحيل "واحسرتي إذا نشأ ولداي، أحدهما أو كلاهما، وفيهما جرثومة هذه العدوى، عدوى الرحيل"(٣٧). ما يعني أنّ مصطفى سعيد وصل إلى قناعةٍ بأنّ تجربته في الحياة وما صاحبها من صراعٍ وعنفٍ لا تستحق الاحتذاء، فهي بمثابة عدوى يتمنّى ألا يراها تنتقل إلى ابنيْه اللذيْن يرمزان إلى الأجيال اللاحقة.

يتبيّن لنا مما قالته أحداث الرواية أعلاه ومما أوحت به، أنّ ثمّة عنفيْن متوازنيْن يستجيب أحدهما للآخر في تجانسٍ فائقٍ، ميّزا العلاقة بين الشَّمال والجنوب، بيد أنّ هذا الوضع لم يؤدِّ إلّا إلى فشل العنفيْن على حدٍّ سواء في تحقيق غاياتهما، فشل العنف المقنّع بقناع التحضير والتنوير، والعنف المضاد له من أبناء الشعوب المستعمَرة.

هذه النتيجة تقودنا إلى استنتاج دلالةٍ أُخرى مهمّة من دلالات ظاهرة العنف التي جلّلت أحداث الرواية، تجسِّد رؤية الكاتب، تتمثّل تلك الدلالة في فتح الباب أمام البحث عن طريقٍ ثالثٍ، ولن يكون هذا الطريق الثالث إلّا في الاعتراف والاعتماد المتبادل بين الشعوب على كِلا جانبيْ الفالق الاستعماري. ومن هنا ينبغي أن تدرك شعوب العالم بعقلها لا بعاطفتها، كما أدرك ذلك بطل الرواية، لكن بعد فوات الأوان، أنّ البحث عن القواسم المشتركة ورعايتها خير للإنسانية من تهييج مناطق الاختلاف، وأنّ رؤية الأشياء بحياديةٍ واستقلالٍ خيرٌ من النظر إليها بعينٍ واحدةٍ،

(٣٧) نفسه: ص٧٧.

فالعالم كما يقول إدوارد سعيد: "من الصغر والاعتماد المتبادل بعضه على بعض بحيث ينبغي ألا نسمح لهذه الأزمات أن تحدث ونحن عنها سادرون سلبيون".(٣٨)

فضرورة الوعي بخطورة فكرة حتمية الصراع الحضاري والثقافي بين الشعوب، هي واحدة من الأفكار المهمّة التي سعت الرواية ضمن أفكارٍ أُخرى عديدة إلى إجلائها ومعالجتها، في إطارٍ سرديٍّ فنِّيٍّ بعيدٍ عن المباشرة، خشية أن تجيء رواسب الفترة الاستعمارية كروحٍ شريرةٍ من وراء المجهول تُلحق الضرر بالأجيال القادمة، تماماً كما خشيَ بطل الرواية على ابنيْه من هذا المصير.

الخاتمة

قامت فكرة هذه الدراسة على البحث في فرضية العلاقة بين الارتحال والعنف في رواية موسم الهجرة إلى الشّمال للطيِّب صالح، بوصفها واحدةً من أبرز الروايات الحضاريّة العربية، تلك الروايات التي طرحت قضية العلاقة بين الشرق والغرب، على بساط النقاش الإبداعي والنقدي. فقد قدّمت هذه الروايات صوراً لشخصياتٍ وأبطالٍ عانوا الاغتراب بارتحالهم إلى بيئاتٍ ثقافيةٍ واجتماعيةٍ مغايرة في الشّمال، الأمر الذي أخذهم في طريق بحثٍ جاد وكشفٍ، قادهم إلى معرفةٍ أعمق بالذات وبالآخر المختلف. وقد اتّسم الخطاب في رواية موسم الهجرة إلى الشّمال ببروز ظاهرة العنف التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالارتحال شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً. فبقدر ما صرع عنفُ الحضارة الغربية الشعوبَ الأصلانية المستعمَرة، جاء المرتحلون إلى الحواضر الغربية يتخيّلون جميع الطرق الممكنة لمقاضاة المستعمِر في عُقر داره، فاستعاروا هذا العنف ليعبِّروا من خلال رمزيته، على مقدرتهم في موازنة عنف الحضارة الغربية، وهو ما

(٣٨) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية: ص ٨٩.

جعل هذا العنف _في تصوُّرهم_ وسيلةً ناجزةً لردم الفجوة بين العالم الغربي المتطوِّر، والعالم غير الغربي. كما أسهم حضور العنف بهذه الطريقة التي جاء عليها في الرواية بحيث لم يُفضِ إلّا إلى موت الأنثى، أسهمَ في فتح أحداث الرواية على أفقٍ تأويليةٍ ذات دلالاتٍ عميقةٍ، توحي بفشل العنف المتبادل في بناء علاقاتٍ سويّةٍ بين الشَّمال والجنوب، وهو ما يقتضي البحث عن طريقٍ ثالثٍ، والذي لن يتأتّى إلا بإزالة هذه الحضارة القائمة، الأمر الذي جعل من موت المرأة الغربية التي تمثِّل هذه الحضارة على صعيدٍ رمزيٍّ في الرواية ضرورةً، لتقوم على إثرها حضارةٌ جديدةٌ تكون لديها القدرة على التحاور والاعتراف المتبادل مع الآخر المستعمَر.

المصادر والمراجع

[١] صالح، الطيب، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، ٢٠٠٤.

[٢] آلن، روجر، الرواية العربية: مقدّمة تاريخية نقدية، ترجمة: حصة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٧.

[٣] إبراهيم، عبد الله علي، السرد _ الاعتراف _ الهويّة، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١١.

[٤] بركات، حليم، الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦.

[٥] بن غنيسة، نصر الدين، عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة، ط١، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ٢٠١٢.

[٦] الخضراوي، إدريس، الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، ط١، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢.

[٧] تاور، محمود موسى، أدب الزنوجة، دار عزّة للنشر والتوزيع، الخرطوم، ٢٠٠٤.

[٨] سعيد، إدوارد، الثقافة والإمبريالية، ط٢، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨.

[٩] شلش، علي، الأدب الأفريقي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، مارس ١٩٩٣.

[١٠] صن، أمارتيا، الهويّة والعنف: وهْم المصير الحتْمي، ترجمة: سحر توفيق، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٨.

[١١] عجب الفيا، عبد المنعم، في الأدب السوداني الحديث، ط١، دار نينوى، دمشق، سوريا، ٢٠١١.

[١٢] كونراد، جوزيف، رواية قلب الظلام، ط لندن، عام ١٩٩٥.

[١٣] مجموعة مؤلّفين، الكتابة والمنفى، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١١.

[١٤] مجموعة مؤلّفين، هذا هو المكان في تذكُّر الطيِّب صالح: مقالات في الأدب والثقافة السودانية، ط١، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، أم درمان، السودان، ٢٠١٠.

[١٥] واثنقو، نغوجي، تصفية استعمار العقل، ترجمة: سعدي يوسف، دار التكوين، دمشق، ٢٠١١.

Migratory and Discovery and Contagion of Violence in the Arabic Civilization Novel "The Season of Migration to the North as a Model"

Dr. Yasin Ibrahim Bashir Ali, and Dr. Adel Osman El Hadi
Associate Professor of Literature and Criticism
Department of Arabic Language / Faculty of Arts - King Faisal University - Kingdom of Saudi Arabia

Abstract. This study aims to identify the Arabic civilization novel, represented in the novel: The Season of Migration to the North, bearing in mind all the meanings of adventure and discovery embodied in this migration as well as what it necessitates the wagers of loss and victory. Such a type of novel reveals the state of an Arab intellectual in his western country of emigration during and after the colonial era. He sets off a journey of finding his self and discovering the other who is different and owns secrets of strength, which enabled him to dominate the people of the Third World and impose his hegemony over them in the modern era. The most important feature that characterizes this novel " The Season of Migration to the North" and gives it a significant recognition and presence among these novels is that its emphasis on violence phenomena which appeared notably in its artistic and intellectual structure, the matter that raises serious questions regarding the denotations of this violence in its civilization context. Therefore; this study comes to account for narration, politics and ideology aims at finding the answer.